

كلمة عضو مؤسسة فؤاد شهاب، العميد الركن المتقاعد جان ناصيف
في مناقشة كتاب "جمهورية فؤاد شهاب" بدعوة من النادي اللبناني للكتاب وببلدية جونية
بتاريخ الثلاثاء ٢٤ شباط ٢٠٠٩ الساعة السابعة مساء في مبنى بلدية جونية

أشكر أعضاء النادي اللبناني للكتاب وببلدية جونية لدعوتني المشاركة في مناقشة كتاب "جمهورية فؤاد شهاب" للصديق الصحافي نقولا ناصيف، تاركاً أمراً المناقشة للأسئلة والأجوبة، مفضلاً الإتارة على النزعة الوطنية للواء الرئيس فؤاد شهاب والتي ترجمها بناءً في الجيش الذي قاد وفي الدولة التي رئس.
الكلام عن الرئيس اللواء الأمير فؤاد شهاب سهل وممتع. فالرجل لم يكن يحب السياسة في قاموسها اللبناني ولا الكلام السياسي ولا المناورات السياسية، بل كان صامتاً وهو القائل "كنت وما زلت الرجل الذي عرفتم، عزوفاً عن القول وإيثاراً للصمت في اداء الواجب" اي انه كان يعمل بصمت وفقاً لرؤيه واضحة عنده ولحلول عملية لمشاكل ومتطلبات الناس في لبنان. ان ذلك ناتج عن نشأته وعيشه المباشر مع الناس في أطراف لبنان الفقيرة في عكار والجنوب ثم البقاع وحال العشائر هناك.

ان الحديث عن أي شخص يستلزم استحضار نسبة ونشأته وبيئته وتجاربه، فهو سليل الإمارة الشهابية ومن أم شيخة حبشية. هاجر والده وهو في الخامسة وانقطعت أخبار الأب وكان فؤاد يكبر أخوه فريد وشكيب. عاشت العائلة في فقر وااضطر البكر الى الدراسة والعمل في آن معاً. كان فقر طفولته مصدر تفشت رافقه سنى حياته تاركاً أثراً بارزاً في قراراته كقائد للجيش ورئيس للجمهورية.
بعد هذه المقدمة سأتناول بإيجاز أهم منجزاته في قيادة الجيش وفي رئاسة الجمهورية مع المرور إلماً بمواقف وطنية ومفاصل أساسية في حياته.

اثناء فترة الانتداب خدم كمساعد لقائد موقع راشيا الوادي من ١٩٣٠ وحتى ١٩٣٦ وكان يعمل في امرته جنود لبنانيون وفرنسيون تسمى له خلال هذه الفترة الاتصال بالأهالي والتحاور معهم والتعرف على حالهم وعلى حاجاتهم فوجده نفسه قريباً من البيئة الشعبية اللبنانية التي تمثل نموذجاً مثالياً للوحدة الوطنية والعيش المشترك وكذلك لفهم طبيعة الحياة في المناطق النائية المحرومة من نعم الدولة التمركزة في العاصمة ومن هناك بدأ يختزن في وجدانه الانساني والاجتماعي واجب العمل من أجل العدالة والعلم والائمه والمساواة في جميع المناطق.

خلال فترة الانتداب ومنذ ١٩٣٦ تولى قيادات لوحدات عسكرية ضمت لبنانيين وسوريين وانتهت قوات هذه الوحدات بأن تشكل نواة الجيشين اللبناني والصهيوني بعد نيل الاستقلال. كان الضابط فؤاد شهاب يحرص عند مخاطبة ضباطه وجنوده على تأكيد ضرورة تأييد رفاقهم العسكريين اللبنانيين في أي نزاع ينشب بينهم وبين عسكريين فرنسيين وما حادث الشجار بين المعاون حسن ديب اللبناني والرقيب أول آزو "ابن تولوز" الفرنسي إلا تعبيراً عميقاً وصادقاً للروح الوطنية التي رافقه، وحادث الشجار هذا اختصره كما رواه لي العميد انطون سعد: "ان شجاراً بالأيدي نشب بين هذين العنصرين في ثكنة الخيام عام ١٩٣٦ حيث كان الملائم انطون سعد مسؤولاً هناك. كان لهذه الحادثة صدى سلبي لدى قيادة الأركان

للحرب في بيروت وكان الكومندان فؤاد شهاب قد ضمته القيادة الفرنسية إليها. ارتأت القيادة ايفاد ضابط فرنسي مسؤول يرافقه فؤاد شهاب للاطلاع على ما جرى ومعالجة ذيوله. وبوصولهما راح الملائم سعد يروي ما حدث وخلص إلى أنه اتخذ تدبيراً لحل المشكلة، قال بمباهة واغبطة: انه وضع الفرنسي في المستوصف واللبناني في السجن. وهنا لاحظ أن الامتعاض ظهر على وجه فؤاد شهاب. عاد سعد إلى مكتبه متسللاً لماذا هذا الانزعاج؟ وفي هذه الأثناء سمع نقرة على زجاج شباك الغرفة فكان فؤاد شهاب الذي قال له "يا غبي يا الاثنين في المستوصف او الاثنين في السجن. "ديب أبقاك من آزو". ديب باقي وآزو رايج. هل ان ديب ذهب الى تولوز لضرب آزو ام ان آزو القاسم من تولوز هو من ضرب ابن بلدك." هذه الملاحظة من فؤاد شهاب لأنطون سعد، الذي أصبح رئيساً للمكتب الثاني أثناء تولي اللواء شهاب قيادة الجيش ومن ثم رئاسة الجمهورية، تركت أثراً كبيراً وتحولأً جذرياً في سلوك سعد، وعندما أتيحت له فرصة المجيء إلى بيروت كان همه مقابلة الكومندان شهاب. وهذا ما حصل، فكانت انطلاقاً العلاقة بين الرجلين.

الإشارة البارزة الثانية لنزعة فؤاد شهاب الوطنية، كانت الوثيقة التاريخية التي كان أول موقعها مع أربعين ضابطاً لبنانياً في اجتماعهم في زوق مكايل بتاريخ ٢٦ تموز ١٩٤١، وقد قرروا الاعتماد في كلّهم مع وحدات المتطوعين اللبنانيين الخاضعين لإمرتهم، تجنبًا لانحياز إلى القوات المقاتلة البريطانية والفرنسية المنقسمة بين قوات فيشي وقوات التحرر. تقول الوثيقة: "تحن الموقعين بذلك، ضباط القطع اللبنانية، نتعهد بشرفنا إننا لن نقبل الخدمة إلا في سبيل لبنان وتحت رايته، على أن لا تكون لنا علاقة إلا مع الحكومة الوطنية وإن نعمل لأجل تحقيق هذه الأمنية إلى ما شاء الله، وكل من يسلك غير هذا الطريق يعتبر خائناً ويشهر به."

الإشارة الثالثة التي أودَ إبرازها أيضاً في مجال الحسّ الوطني اللبناني العميق في نفس فؤاد شهاب، ما حصل معه شخصياً يوم توقيع اتفاق القاهرة في الثالث من تشرين الثاني ١٩٦٩. اتصل بي في مكتبي بوزارة الدفاع، وكانت يومها رئيساً لفرع الصحافة في الشعبة الثانية، قائد الجيش العماد أميل بستاني من القاهرة، وأملأ على البيان الخاتمي المشارك لما سمي اتفاق القاهرة، طالباً إذاعته رسمياً مساء ذلك اليوم ليتزامن مع إذاعته أيضاً من القاهرة. خابت رئيسي المقدم غابي لحود، وبناءً لإشارته خابت كلّ من رئيس الجمهورية شارل حلو الذي طلب مني إطلاع رئيس الحكومة رشيد كرامي. كان ردَ الرئيس كرامي لا حول ولا قوة إلا بالله" ورغم ذلك طلب مني إطلاع الرئيس شهاب. أعلمَ رئيسي المقدم لحود عن النتائج ورغبة الرئيس كرامي فوق الجميع، واتصلت بالرئيس شهاب الذي بادرني: مش قليلي... اتفقوا!" عندما فرأت للرئيس شهاب نصَّ الاتفاق استوقفني طالباً إعادة قراءة ما ورد في المقدمة خصوصاً الفقرة التي وردت فيها عبارة "أهداف الأمة العربية" فقال لي الرئيس شهاب: "يا ابني، أبدل أهداف الأمة العربية بالأهداف العربية". أما بالنسبة إلى المسؤولين المصريين الذين حضروا توقيع الاتفاق (السيد محمود رياض وزير الخارجية، والفريق محمد فوزي وزير الحرب في الجمهورية العربية المتحدة)، طلب الرئيس شهاب الإشارة إلى صفتهم في إطار العمل العربي الموحد أي القيادة العربية الموحدة في حينها. وقال الرئيس شهاب لي:

هكذا نضفي على الاتفاق الصفة العربية والغطاء العربي الكامل بدلاً من الاكتفاء بالغطاء المصري وحده. فهذه هي الصيغة التي تلمنا هنا في الداخل اللبناني". وقد أطلعت المقدم لحود ومن ثم الرئيسين حلو وكرامي على ملاحظات الرئيس شهاب. وكان ما كان.....

مع بزوع شمس الحرية وإعلان الاستقلال وفي الأول من آب ١٩٤٥ عين الزعيم فؤاد شهاب قائداً لجيش الاستقلال. لم يكن هذا الاختيار لاسم او نسب عائلي بل لشخصية عسكرية وطنية مميزة تتسم بالوطنية والنزاهة والأخلاق وبالكفاءة المهنية الكفيلة ببناء وتنظيم جيش يكون ضمانة للاستقلال وسياجاً للنظام والدستور.

اول واجب وطني لقائد الجيش اطلق من الحدود الجنوبية في معركة المالكية الشهيرة حيث رفع العلم اللبناني منجزاً المهمة التي أمر بها بنجاح.

على مدى السنوات من ١٩٤٥ وحتى ١٩٥١ كان على اللواء فؤاد شهاب ان يبني الجيش على أساس من العلم والتخطيط وعلى مر السنين أعاد بناء الأسلحة البرية من مشاة ومدفعية ومدرعات وهندسة وإشارة كما أنشأ سنة ١٩٤٩ سلاح الجو وأعد له الطيارين الذين تربوا في بريطانيا وصار للبنان في ذلك الوقت قوة جوية مشهود لها بالفعالية، وعام ١٩٥٤ أنشأ القوى البحرية وتلقى ضباطها تدريباتهم في المدرسة البحرية الفرنسية. الى جانب بناء الأسلحة المتعددة الاختصاصات، جرى تطوير الجندي وبناء الثكنات في مختلف المناطق على قاعدة أخذت في الاعتبار الضرورات العسكرية من جهة والمصالح الاقتصادية والاجتماعية لهذه المناطق من جهة أخرى؛ وهكذا نشأت علاقة وطنية وطيدة بين الجيش والشعب، فالجيش من الشعب ومن الطبيعي ان تكون بين المواطن والجندي مودة وعطاء متبدال.

واكب إنشاء الأسلحة وبناء الثكنات تطوير الجندي وتدريبهم في جو من الألفة والانضباط وكذلك تنشئة الضباط في المدرسة الحربية، وطلاب المدارس الثانوية في المخيم الصيفي للتدريب العسكري، وقد اندفع عدد كبير من هؤلاء الطلاب بعد فترة التدريب الى الانخراط في المدرسة الحربية وأصبحوا قادة مميزين في هذا الجيش. هكذا انصرم الجميع على أساس من الولاء الوطني والانضباط والتضحية ونكران الذات فأصبح الضابط المتخرج من الحربية والجندي المنتهي فترة تدريبه كالمترهّب مقسماً اليمين "أقسم بالله العظيم ان أقوم بواجبي كاملاً حفاظاً على علم بلادي وزوداً عن وطني لبنان"، وأصبح شعار الجيش "شرف، تضحية، وفاء".

مع تقدم الزمن بإنشاء الجيش الوطني، ازدهرت مدارس التدريب وتطورت برامجها لتعاشي متطلبات العصر وكانت المدرسة الحربية الرائدة في توسيع برامجها لتشمل الى جانب العلوم العسكرية والتنمية الوطنية العلوم الثقافية والاجتماعية والإنسانية والتي يحاضر فيها كبار من أساتذة الجامعات والمفكرين. خلال توليه القيادة حصن اللواء شهاب الجيش ونشر فوقه مظلة تحميء من أي تدخل او اختراق وعندما عصفت بلبنان أزمات سياسية كان الجيش صمام الأمان والحامى للنظام والدستور. فسنة ١٩٥٢ وبعد استقالة الرئيس بشارة الخوري تولى اللواء شهاب رئاسة الحكومة والدولة لأيام معدودة حتى انتخب

رئيس جديد فأعاد الأمانة إلى موقعها رافضاً الرئاسة ببابه رغم إلحاح الكثرين عليه بأن يكون هو الرئيس، وعاد ليقود المؤسسة العسكرية، "الصامت الأكبر".

كان القدر ينتظره العام ١٩٥٨ عندما اندلعت أزمة سياسية تحولت إلى صراع مسلح وبعد إلحاح داخلي وإقليمي ودولي، أنتخب رئيساً. كان عليه أن يوقف التقاتل المسلح بين اللبنانيين وأن يعالج الأسباب التي أدت إلى ذلك فبدأ بإقامة دولة المؤسسات وتحقيق العدالة الاجتماعية والإيماء المتowan بين كل المناطق والمواطنين تأسيساً للوحدة الوطنية المتباعدة والدائمة وهكذا كان رجل الدولة ورجل السياسة والحكمة البعيد عن الممالاة والمداهنة.

يقول الوزير فؤاد بطرس في كتابه "المذكرات" الذي صدر منذ أيام: "في الثلاثين من أيلول ١٩٥٩ وبعد لقاء مع الياس سركيس مدير غرفة الرئاسة، ولم أكن أعرفه قبلًا، أبلغني ان الرئيس شهاب يفكر في توسيع الحكومة وأن أكون ممثلاً للأرثوذكس، وأن الرئيس سيططلع على تصوره في هذا الشأن طالباً مني انتظار مكالمة هاتفية. في العاشرة والربع ليلاً من ذات النهار، اتصل بي من القصر الجمهوري ناظم عكارى، مدير عام رئاسة الحكومة طالباً مني الحضور إلى منزل الرئيس في جونيه. فتوجهت على الفور. ولما دخلت المنزل وجذته مع الرئيس كرامي الذي نظر إلى الرئيس قائلاً: الأستاذ فؤاد بطرس". ثم دعاني الرئيس شهاب الذي لم أكن قد اجتمعت به قبلًا، إلى غرفة جانبية، وعقدنا اجتماعياً ثانياً. راح يشرح لي الخطوط العريضة لمشروعه الرامي إلى بناء لبنان على قواعد صلبة والتزامه المطلق ببناء دولة عادلة قوية يثق بها جميع اللبنانيين فلا يعودون منتمين إلى طوائفهم أكثر مما ينتمون إلى وطنهم. ويقول الاستاذ بطرس: دام الاجتماع نصف ساعة، كان الأهم لي مع الرئيس، على الرغم من أن علاقتنا، ابتداء من ذلك التاريخ امتدت في العمق وفي الزمن حتى اليوم الأخير من حياته، بل يمكنني أن أقول إنها لم تنته بوفاته، إنما اخذت بعداً آخر".

إذا همه كان المواطن وهدفه خلق تيار إيمائي جامع للمناطق والطوائف في خدمة هذا المواطن أينما وجد بعيداً عن استغلال السياسيين. وأذكر أنه كان يردد لي دائمًا: ان حقوق المواطن تزيل التحكم الطائفي والسياسي للطبقة الحاكمة.

منذ السنة الأولى من عهده عمد إلى ترسیخ مفاهيم الاصلاح ومقومات الحكم لبناء دولة الاستقلال فبدأت تصدر التشريعات الناظمة لبناء الدولة وأهمها مجلس الخدمة المدنية، الضمان الاجتماعي، المشروع الأخضر، التفتيش المركزي، المجلس الوطني للبحوث العلمية، قانون النقد والتسليف، مصرف لبنان، وكل يشهد، وفي هذه الأيام، خاصة مع الأزمة الاقتصادية العالمية، الدور الكبير الذي يقوم به هذا المرفق المالي المصرفي وهو الوحيد غير المخالف عليه بين اللبنانيين... غير أنني أتوقف عند القوانين والمراسيم التي اهتمت بالمدرسة والطرق والماء والكهرباء، واهمنها تنفيذًا للخطة الخمسية التي وضعت نتيجة دراسات بعثة إرفد التي رئسها الأب لوبيريه. ففي سنة واحدة عرفت ١٧٠ قرية في المناطق النائية المدرسة لأول مرة، ثم توالت الإنجازات فربطت ١٨٣٨ قرية في مختلف المناطق بشبكة الطرق، و ٧٦٠ قرية وصلتها المياه و ١٠٧٦ قرية وصلتها الكهرباء.

لقد سلط كتاب الصديق نقولا ناصيف "جمهورية فؤاد شهاب" الأضواء على حقبة من تاريخ لبنان كادت تمحوها السنين وأرى انه من المفيد جداً تسلیط مزيد من الأضواء وخاصة على دراسات بعثة إرفلد وعلى كتاب التنشئة الوطنية الإنسانية وانتشالها من ظلام النسيان ل تكون في متناول كل مسؤول وكل مواطن يود التعرف والمقارنة والمحاسبة.

أختم أخيراً لأقول أن فؤاد شهاب او الشهابية ليست مطمورة في قبر بارد في غزير وإنما هي باقية زاداً للمنتورين ورؤيه ومرجعاً صالحأً لدولة عصرية، لدراسات موجودة في كل دائرة رسمية ولمشاريع تشهد لها جميع المناطق اللبنانيه، وهي موجودة ايضاً في كل مرفق وتحت خيمة كل جندي أينما وجد وفي ضمير كل ضابط وفي متناول كل مسؤول راغب في البناء والعمل العام النظيف.